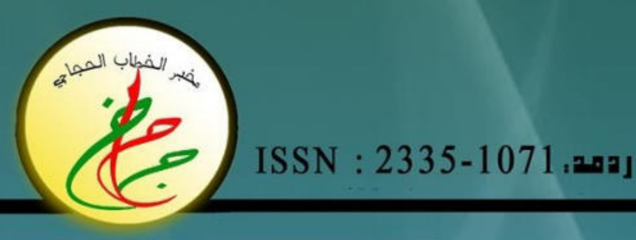


ISSN : 2335-1071 ردمد:

مخبر الخطاب الحجاجي
أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
جامعة ابن خلدون -تيارت



ملف العدد:

- النسق العقدي في التأويل البلاغي
- الفلسفة الهيرمينوطيقية...مدخل إلى أسس التأويل
- اللغة الأدبية والفكر وعالم الأشياء
- الخطاب الحجاجي القرآني الموجه لبني إسرائيل
- الحجاج بالتمثيل في الخطاب القرآني

سبتمبر 2016

العدد 15

المجلد الرابع

دورية أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات والبحوث العلمية والنقدية واللغوية والأدبية والبلاغية باللغتين العربية والأجنبية

فصل الخطاب العدد الخامس عشر سبتمبر 2016

Faslo El-Khitab Revue n°15 Septembre 2016



ISSN: 2335-1071

Laboratoire du discours argumentatif
ses origines, ses références ses perspective en Algérie
Université Ibn-Khaldoun-Tiaret

Faslo El-Khitab

(Art d'Argumenter)

Septembre 2016

Revue périodique a vocation scientifique, traitant des domaines de la critique littéraire, la languistique et la rhétorique en langues arabe et étranger



Volume 04

فصل الخطاب

دورية أكاديمية محكمة يصدرها مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وآفاقه في الجزائر
تعنى بالدراسات والبحوث العلمية النقدية واللغوية والأدبية والبلاغية باللغتين العربية والفرنسية

العدد الخامس عشر

سبتمبر 2016

ردمد ISSN 2335-1071

رقم الإيداع القانوني 1759 - 2012

جامعة ابن خلدون – تيارت
الجزائر

توجه المراسلات إلى إدارة المخبر أو المجلة
ص.ب. 78 زعرورة _ تيارت 14000 _ الجزائر
أو عبر: faslkhitab@gmail.com



قواعد النشر بالمجلة

1. تهتم المجلة بنشر كل الأبحاث التي تعالج قضايا في حقل الحجاج والنقد الأدبي والبلاغتين القديمة والجديدة وما يدور في حقل اللغويات وله علاقة بهذه المواضيع . كما يمكن أن تنشر المجلة نقدا متخصصا أو مراجعة أو ترجمة لأحدث المدونات العلمية الصادرة باللغة العربية أو اللسان الأعجمي.

2. لغة النشر عربية، فرنسية، إنجليزية، على أن يصحب البحث بملخصين مجتمعين في صفحة، أحدهما باللغة العربية والآخر إما باللغة الفرنسية أو الإنجليزية.

3. ألا يكون المقال قد سبق نشره أو قدم للنشر في أي إصدار آخر .

4. يقدم المقال المكتوب بالعربية بخط (Traditional Arabic) قياس 14في المتن و11في الهامش، أما المكتوب بالأجنبية بخط Times New Roman قياس 12 في المتن و10في الهامش وكلاهما بمسافة 1سم بين الأسطر وهوامش 4 سم (من الجهات أربع)، وألا يتجاوز البحث عشرين (20) صفحة بما في ذلك الإحالات، التي يشترط أن تكون إلكترونية، أما الجداول والترسيمات والأشكال فتكون صورا IMAGE .

5. بعد موافقة اللجنة الاستشارية المؤهلة للخبرة العلمية على الأعمال والبحوث، تعرض على محكمين اثنين من ذوي الاختصاص يتم اختيارهما بسرية مطلقة. وتحتفظ المجلة بحقها في أن تطلب من صاحب المقال التعديل بما يتناسب ووجهة نظرها في النشر .

6. لا تعبر البحوث المنشورة بالضرورة عن رأي المخبر، والمجلة غير مسؤولة عما ينتج عن أي بحث، والدراسات والبحوث التي ترِد المجلة لا تُردّ إلى لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

7. ترتيب المقالات في المجلة يخضع للتصفيف الفني وليس لاعتبارات أخرى كمكانة الكاتب أو شهرته أو غير ذلك.

الفهـــــرس

كلمة رئيس التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

أمّا قبل:...

استطاعت مجلة (فصل الخطاب) منذ صدور عددها الأول حتى هذه اللحظة أن تمضي في تحقيق مشروع طالما بقي حلما يراود الأستاذ والطالب والباحث، لذلك أخذت المجلة على عاتقها تحقيق هذا الحلم بصبر وأناة وتحدّ للمعوقات المادية والمعنوية على كثرتها وجسارتها وتفاعلها مع محيط لا يدعو إلاّ للتثبيط والسلبية القاتلة، وسط هذا الجو المشحون بالرداءة والاسفاف انتفضت مجلة فصل الخطاب بطاقمها الفاعل والمتفاعل أن يحوّل السكون والسلبية إلى نافذة يرى منها الجامعي أستاذا كان أم طالبا ثقافات الآخر – مهما يكن أمر هذا الآخر- عن قرب، ويقيم الحوار معها، مع ما يحمله مفهوم الحوار من تفاعل مع هذا الآخر على نحو من الأنحاء، كما تسعى المجلة في خطها المرسوم لها ضمن أسسها ومنطلقاتها الفكرية بأن توفر للمتلقي النخبوي فرصة المعايشة مع المشاهد النقدية الغربية دون الانحياز لمنهج على آخر، فهي لا تحصر نفسها بأي اتجاه فكري محدد اللهم إلاّ ما يرسم خطها في تخصيص مقالات في الحجاج والبلاغة بشقيها القديمة والجديدة، لذلك فهي تسعى الى أن تقيم توازناً نسقياً بين المناهج النقدية كلها،

ومن ذلك ففي خط المجلة ليس مطروحا عندنا ثنائية التراث والحداثة على مستوى الوعي أو الكتابة لأنه لا يمكن مقاربته إلاّ من خلال وجودنا الراهن، ذلك أن التراث هو امتداد وجودنا. وعليه سعت المجلة في علاقتها مع التراث أن تردم الفجوة بينه وبين المثقف، فوجّهت جهود السّادة الباحثين للاغتناء منه دون الاستسلام له، ولم يتحصّل لها ذلك إلا بتغيير نمط التفكير في معاملتها مع التراث، باعتباره شرط وجودنا دون أن نتماهى معه أو ننفصل عنه. ولا يكون ذلك إلاّ بتخطي القيود والحواجز التي فُرضت علينا في التعامل معه، ذلك أنه يقبل الحوار ويقبل المناقشة .مادام ثمة إيمان بالتفاعل مع المنجز التراثي والحداثي، في إيقاع متشابك لا يتوقف ولا يهدأ.

فقد تخصص هذا العدد للتأويليات والهيرمنيوطيقا، ولكن لم يغب منظور الحجاج - على أنّ مجلة فصل الخطاب هي لسان حال مخبر الخطاب الحجاجي - باعتباره فاعلية تأويلية من خلال تتبع استراتيجية المؤول أو المجادل برأيه أو بتأويله .فكان من الطبيعي تحديد تنوع استراتيجيات الخطاب، بحسب تنوع الخطابات والأغراض والاستراتيجيات التي تحدده ضمنيا وتوجهه في صمت، من خلال الكشف بآليات التأويل عن المقاصد المضمرة، والتضمينات المسكوت عنها، بما تمتلكه كفاءة المؤول ذاته، وهو لا يتأتى إلا بالتواطؤ - الضمني غير المعلن – بين طرفي التواصل من أجل إنتاج فعل التأويل وهو لا ينفك عن

الحجاج في إثبات أحقية التأويل. لذلك ظلت المقاربات المعاصرة تراهن على التأويل من حيث مركزيته في مقاربات الخطابات التراثية أو الحداثية، وهو ما تسعى إليه المقاربات النقدية الجديدة التي تعزف عن السياقات خارج النص باعتبارها حجبا توجه القراءة، بل وتتفرع عنه كقراءات لمستويات النص المتأول .

ففي عددها الخامس عشر ثمة مداخلات وإن تمركزت حول إشكالية التأويل إلاّ أنها تباينت في المقاربات منها: الفلسفة الهيرمينوطيقا...مدخل إلى أسس التأويل وهو تقعيد نظري الى النسق العقدي في التأويل البلاغي، متشابه القرآن أنموذجا و الخطاب الحجاجي من منظور تداولي "مقاربة نظرية ثم دراسة تطبيقية اجرائية تمثلت في الخطاب الحجاجي القرآني الموجه لبني إسرائيل دراسة نماذج في البنية والأساليب مع مقاربة أخرى لم تبتعد كثيرا عنها الحجاج بالتمثيل في الخطاب القرآني "سورة هود أنموذجا".

إلى مقاربات أخرى في الشعر والسرد، وغيرهما من الأجناس الأدبية التي صارت هاجس الباحث، من خلال البحث والحفر والتنقيب، وهو ما تتغياه المجلة في خطها المرسوم، كونها فضاء للمعرفة والبحث واحترام الآراء على اختلاف توجهاتها وتصوراتها، ما دام ثمة حق للمعرفة واحترام الآخر لهذا الحق.

والله نسأل أن تبقى فصل الخطاب تستوعب البحث الجاد وتنقب عن الكفاءات داخل الوطن وخارجه إيمانا منها بأنه لا وطن للمعرفة ولا حدود لها،

والله من وراء القصد

رئيس التحرير

الأستاذ الدكتور: أحمد بوزيان

الدراسات باللغة الأجنبية

Revue Périodique Publiée Par Le Laboratoire
D'études Sur Le Discours Argumentatif:
Ses Origines, Ses Références Et Ses Perspectives En Algérie

Faslo el-khitab

Traite Des Etudes Et Des Recherches Scientifiques, Critiques, Linguistiques, Littéraires Et Rhétoriques En langues, Arabe Et étrangères

ISSN 2335-1071

N° De Dépôt Légale: 2012 - 1759

Revue n° 15

Septembre 2016

Université Ibn Khaldoun Tiaret
Algérie

توجه المراسلات إلى إدارة المخبر أو المجلة
ص.ب. 78 زعرورة _ تيارت 14000 _ الجزائر
أو عبر: faslkhitab@gmail.com
Zerroukikader@gmail.com

Sommaire

القرآن الكريم كلام الله المعجز

الدكتور: محمد رزيق

جامعة الشلف ـ الجزائر

لقد اقتضت البيئة الأعرابية القرشية التي هي المرجع والمحك لقياس المهارات اللسانية العربية المتميزة أن يختص الخطاب القرآني بتقديم النموذج اللغوي والبلاغي العربيين المغالبين في كثير من التحدي والتجاوز لعجرفة الأعراب، وادعاءاتهم بالتفوق المنقطع النظير في البلاغة العربية، لذلك فقد ترسّم مسلكان هما: اللسان الأعرابي البليغ من جهة، والخطاب القرآني المعجز من جهة أخرى، وقد ترتب عن تلك المنافرة والتحدي بروز سياق لساني وأسلوبي تبلور في مفهوم الإعجاز، ومغزاه الانتقال من الإنشاء البشري إلى كلام الله المعجز الآخذ بلسان القوم وعاداتهم وتقاليدهم وأساليبهم البلاغية، والمتجاوز في ذات الوقت لما بلغوه من الإبداع اللغوي.

الكلمات المفاتيح: بلاغة القرآن؛ القرآن الكريم؛ الخطاب القرآني؛ البلاغة العربية؛ الإعجاز؛ كلام الله؛ الحس البلاغي؛ الأدبية.

The Holy Qu'ran, Allah's Miraculous Word

Abstract : The Arabian Quorish Environment which is the reference and benchmark for the measurement of distinctive Arabic language skills has required that the Qur'anic discourse is concerned with presenting the overwhelming Arab linguistic and rhetoric models in many of the challenge and transcendence of arrogant Arabs, and their claims of unrivaled superiority in Arabic rhetoric. Therefore, it has drawn two tracks are: The eloquent Arab tongue, on the one hand, and the Qur'anic miraculous discourse, on the other hand. This defiance and challenge resulted in the emergence of a linguistic and stylistic context that crystallized in the concept of miracles. And its significance is the transition from human creation/expression to the miraculous Word of God that takes the tongue of the people, their customs, traditions and rhetorical methods, surpassing at the same time what they reached of linguistic creativity.

Keywords: Miraculous word, Linguistic and Rhetoric Models, Eloquent Arab Tongue

لقد تركز الاهتمام بموقف التحدي على جانب بلاغة القرآن، من حيث مدى تحدي أساليبها المعجزة للسان الأعرابي القوي المتعصب لتقاليده الأسلوبية، وقد ترتب على روح المنافسة والتفوق قيام علم لغوي طارئ هو إعجاز بلاغة القرآن، وليس ذلك إلا لكونه يقوم

تاريخ تسليم البحث:16 سبتمبر 2015.

تاريخ قبول البحث: 15 مارس 2016.

برهانا على تفوق الخطاب القرآني مقابل أسواق البلاغات العربية الطاغية على أدبيات ذلك العصر، وقد توزع ذلك المذهب البلاغي عبر نشاطات لغوية ودلالية تجسدت في مواضيع: الأسلوب والتصور والسرد[1] الفني، والعلم بالغيبيات، وتقدير الحسابات الفائقة كفاءة الإنسان.

لقد أتى هذا التوجه خادما لتقوية البرهان على صدق ربانية النبوة بما يجعلها تفوق احتمال الإنسان، وقد ظل ثبْت تلك المعجزات البيانية والعلمية والمعرفية متمحورا حول بذل الأسباب الدالة على مدى قصور اللسان العربي، مما أنزله من عِلية السيادة والتفوق في الأسواق اللغوية العربية إلى مستوى العجز والقصور أمام بلاغة القرآن الكريم، وقد امتد هذا الأثر الفائق ليكون مدرسة لغوية بلاغية طارئة جديدة على المعارف البلاغية العربية، بكل ما تتمتع به من الفطنة واللياقة والتفوق على البيئة الواقع فيها.

والملاحظ إن البيئة الأدبية الأعرابية باعتبارها النموذج الأدبي الأسمى، ظلت تتمتع بتجانس معرفي ظلت مظاهر البيئة خلاله تمد الحس البلاغي بجملة من الفطن التي هي في نهاية المطاف جزء لا يتجزأ من النشاط البلاغي الذي ازدانت به التوقيعات الأسلوبية والشعرية الأخرى، فالقيافة والكهانة والفراسة من النشاطات الروحية ظلت تمد الحس البلاغي بجملة من المهارات الدلالية لا تقل شانا عن تلك الفوائد المجتناة من الممارسة الشعرية مثلا، وقد كانت مهارات الاستدلال عن المعاني وقراءة الأثر والسمات والعلامات القيم الغالبة على هذا النشاط.

تلتقي الفطن البلاغية الروحية التي ذكرناها مجملة في الفراسة والقيافة والكهانة والعيافة مع البلاغة من حيث كونها تستمد نشاطها الدلالي من كفاءات التفرس والاستدلال، وهي ذاتها الأدوات الناجعة في قراءة الخطاب القرآني ذي الامتياز البلاغي، وتبعا لذلك فقد ألفينا الجاحظ وهو إمام البلاغيين العرب يؤكد على هذه الخاصية لدى الكلام عن الفطن البلاغية، وقد كان يصف بعض الأعلام بقوة الفراسة وجودتها [2].

وبناء على ما سلف تداوله من شأن التدافع البلاغي بين لغتين، لغة القرآن الكريم ولغة شعر الأعراب وأدبيتهم على العموم، فقد اتفق للبلاغة الجديدة كسب رهان التفوق على النشاط الأدبي السائد خلال تلك المرحلة الانتقالية من الحياة الأعرابية إلى الحياة العربية الجديدة.

ولنا أن نستوثق في موضوع التدافع البلاغي بين لغة الشعر العربي الجاهلي، وبين بلاغة القرآن الكريم الموثق في كثير من الشواهد القرآنية، فهو كتاب الله الخالد، ومعجزة الإسلام الكبرى، ودليل نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته، وهو " كلام الله المنزل على

النبي محمد صلى الله عليه وسلم، المعجز بصورة منه، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته المكتوب في المصحف"[3].

وهكذا فان للتواتر والتحفظ في التلاوة المعززة بالكتابة ظلت هذه جميعها تعزز الخطاب القرآني وتقوي جانبه الأدبي، فالتفاعل اللغوي الذي قوي بين بلاغة القرآن الكريم وبين معجميات الشعراء الفنية أي اختصاصاتهم اللفظية والأسلوبية ظلت تعزز قرآنية القرآن، وتجعل من بلاغته مدرسة أدبية ظل ينهل من معينها الشعراء والخطباء.

ولنا أن نستدل بفاعلية التجاذب الأدبي بين التراث الأدبي الأعرابي، وبين المدرسة الأدبية القرآنية بما ثبت في الروايات الأدبية من احتباس لبيد عن قول الشعر، وقد أوقفه عن ذلك شدة الانبهار الأدبي الذي صادفه في الأساليب القرآنية المغرية الغلابة، وقد ظل بعد ذلك يعترف بشدة الانكفاء تعجبا بما بهره من قوة البيان وسحر التعبير وعجيب التصوير[4].

لقد تناهضت جملة الدلالات والمعارف النقدية والبلاغية حول موضوع الإعجاز، سعت جميعها إلى توثيق المرجعيات الثقافية والمعرفية المتصلة بالموضوع، والثابت عند علماء المسلمين أن القرآن فصيح بالدرجة التي لا تبارى، حتى قال أبو بكر الباقلاني: " أما دلالة القرآن فهي عن معجزة تامة، عمت الثقَلَين، وبقيت بقاء العصرين، ولزوم الحجة بها في أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد واحد، وإن كان قد يعلم بعجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثل وجه دلالته، فينبغي ذلك عن نظر مجدد في عجز أول العصر عن مثله، وكذلك قد يغني عجز أهل هذا العصر عن الإتيان بمثله عن النظر في حال العصر الأول... فبان بهذا وبنظائره من أن بناء نبوة محمد صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن ومعجزته وصار له من الحكم في دلالته على نفسه وصدقه انه يمكن إن يعلم انه كلام الله تعالى، فارق حكمه حكم غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء...ويزيد عليها في أن نظمه معجز "[5].

وبالرغم من أن كلام أبي بكر الباقلاني يبدو صادرا عن منافحة إيمانية قوامه الذَّود عن صدق الرسالة الربانية، إلا انه مثل هذه الآراء ظلت تحتاج إلى براهين لغوية وأسلوبية وبيانية، وهو الجانب الذي يبدو كأنه المجال التطبيقي لدى كل كلام التركيب اللغوي القرآني المعجز الذي يقوى على مضاهاة أساليب الشعر العربي القديم، وقد بلغ الافتتان بمعاينة هذه المقاربة بين لغة القرآن ولغة الشعر العربي القديم أن أنشأ الباقلاني شبه موازنة بين سورة البقرة ومعلقة امرئ القيس، وقد استهدف كما هو واضح تغليب لغة القرآن على لغة المعلقة الذي يبدو لنا بديهيا، إلا أن حمية الإسلام جرته إلى تبني هذا المنهج المهتز في نظرنا، وكيف يعقل أن يوازن هذا بذاك ؟.

وتبدو وجوه الإعجاز مستمرة، وستظل مشغلة كذلك للدارسين والعلماء بحيث "...يظل أبدا رحب المدى سخي المورد، كلما حسب جيل انه بلغ منه الغاية، امتد الأفق بعيدا وراء كل مطمع، عاليا يفوت طاقة الدارسين"[6].

وبيان إعجاز القرآن تجلى في أشكال وصور متعددة من أبرزها الإعجاز البياني ببديع نظمه، وعجيب تأليفه، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلَمُ عجز الخلق عنه، منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن القرآن الكريم خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، فهو خارج عن أعاريض الشعر، وأصناف الكلام المسجع "جاء القرآن الكريم أفصح كلاما وأبلغه لفظا وأسلوبا ومعنى، ليجد السبيل إلى امتلاك الوحدة العربية...وهو لا ينتهي إلى هذه الوحدة ولا يستولي عليها إلا إذا كان أقوى منها، فيما هي قوية به، بحيث يشعر أهلها بالعجز والضعف والاضطراب، شعورا لا حيلة فيه للخديعة والتلبيس على النفس والتضريب بين الشك واليقين "[7].

أما القرآن فإنه يقوم في الأساس على فكرة أداء المعنى المراد بصورة جمالية مؤثرة في النفس من خلال العلاقات اللُّغوية على اعتبار أنه يخاطب قلوب الأعراب المتشبثين بعنجهيتهم، لذلك فان أول تحول طرأ على نفسيتهم هو انتقال عواطفهم من القساوة إلى الليونة، وقد تمّ ذلك حسب تقدير الدارسين (صوتيًا بين الحروف، ونحويًا بين الكلمات، وصرفيًا باختيار بناء صرفي محدد) وهذه العلاقات الثلاث تسهم في وضعية الدلالة وتأثيرها.

ومن فصاحة القرآن وضوح بيان معانيه، واقتصاد مبانيه، وإيجازها، مع اكتفاء غير مخل ولا ممل، تتجلى بلاغته في عجائب تراكيبه، وجمال تعابيره، وبديع عباراته، وروائع الإشارات المتجاوزة لعادة العرب من فصاحتهم وبلاغتهم وهم على ما هم من الفصاحة والبلاغة، وهم سدنة العربية، وقد أوتوا من البلاغة والحِكَم ومن كمال العقل ما لم يؤت به غيرهم من الأمم، حتى إنهم تساجلوا في النظم والنثر وتفاخروا وتكاثروا، فما راعهم إلاَّ رسول كريم جاءهم بخلاف هواهم، أتاهم بكتاب عزيز " لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ"[8] أُحكمت آياته، وفُصلت كلماته، وبَهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول نظمًا أو نثرًا.

لقد توسموها آيات محكمات فصلت أساليبها على النسق الآخذ بقلوب الناس، وقد عزز بمكانة القرآن تربيتهم على تبين فنون البلاغات، فلما وجدوا فيه ما كانت تطلبه نفوسهم، انبروا يمجدونه على تراثهم، ويفضلونه على آدابهم، تبعا لما صادفوا فيه من الامتياز والتفوق عن كل تراث عرفوه.

آراء في إعجاز القرآن الكريم

كانت روعة القرآن الكريم وسحر بيانه تستولي على القلوب والعقول، وقد كان الذوق العربي السليم يساعد على إدراك هذه الأساليب القرآنية، فالفطرة الأعرابية كانت تتشوف إلى ذلك الجديد بعد أن تعلمت ما كانت تجود به أسواقهم الشعرية والأدبية، تعزز هذا المبدأ بان صارت قداسة القرآن متمكنة متغلغلة في نفوس المسلمين بالنظر إلى ما وجدوا في الآيات من الأحكام والتشريعات والتوجيهات التي أعادت للإنسان صفاء فطرته الإنسانية الأولى التي جبله الله تعالى عليها، وبقي الأمر كذلك عصر النبوة، والخلفاء الراشدين، وفترة من الدولة الأموية، لكن اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب جعل السليقة الصافية تفقد صفاءها، واللسان الأعرابي الفصيح يتوارى بين الأخلاط الطارئة على العربية.

في هذه البيئة الحضارية المشوبة بالتيارات الثقافية المتباينة – كمدينة البصرة – حيث كانت دورها تموج بالتيارات الفكرية التي أنتجها التمدن العربي الجديد يتقاسمها فقهاء ومحدثون ولغويون، وأدباء ومتكلمون، وانبرى كل واحد ينتصر لرأيه وفرقته متعصبا، ونقض آراء مخالفيه مجتهدا في بذل الحجاج.

لم تحض مسالة الإعجاز في بداية الأمر بالعناية والبحث، ولم يلتفت إليها الناس قبل التشخص المبين، وإنما كانت ترد مثل غيرها من القضايا ذات الصلة بالنبوة والمعجزة، تناولها المفسرون في سياق التفسير، مع التركيز على استجلاء مزايا الأسلوب القرآني وبلاغته ذات الخصوصيات المعجزة، وباستثناء النّظّام –وهو أحد شيوخ المعتزلة –، الذي ذهب إلى أن سبب الإعجاز هو (الصرفة)*[9]، حتى كأنه بقوله هذا وتخريجه الظاهرة القرآنية على هذا المسمى رمى إلى تفادي مقابلة كلام الله تعالى بكلام البشر، وقد أفادته فكرة الصرفة في أن ظل ينظر إلى قرآنية القرآن في حدود ماهيتها لا تقارن بغيرها ولا توازن.

و استقام لمسار تكون الصراع اللغوي الحضاري أن ظهرت مطلع القرن الثالث للهجري، كتب في الإعجاز توجهت جهودها المعرفية إلى الاهتمام ببلاغة نظم الأساليب القرآنية إلى جانب التوقعات الفنية المتعلقة بطرق رسم الصور المجازية، وقد كان الجاحظ أحد أبرز هذا المحك، فكان أول من أثار ظاهرة الإعجاز في الكتاب الذي أشار إليه الباقلاني في كتابه الموسوم (إعجاز القرآن)، بما يتمتع به من ذوق أدبي رفيع وخبرة بالبلاغة العربية راسخة، وبصر بدقائق الأمور، وبصيرة نافذة مبتكرة، يلج بها إلى دقائق ولطائف أسرار اللغة العربية، وقد جمع الجاحظ مع هذه الخصال ثقافة موسوعية كان أبرزها وصل الفطنة اللغوية بفطنة الحياة الأخرى، وخاصة منها البيئة من حيث تلاؤمها مع الفطن البلاغية المتصلة بالتفهم والتأويل والاستنباط والاستدلال، وقد انبرى يستمد من كل اختصاص ما يستعين به على تفهم الشعرية العربية،

وجماليات الأدوات اللاحقة بذلك، وزاد ثري في اللغة والنحو وأشعار العرب، وقد تسلح الجاحظ متمنهجا بثقافة العصر، مُعتدا بحرية الرأي المستفادة من مذهبه المعتزلي المؤهل إلى استعمال معيارية عقلية خارقة للمألوف، واعتداد بحرية الرأي وسلاح العقل، وقد لخص كل ذلك في كتابه (نظم القرآن)**، وهو كتاب ذكره في الحيوان، يقول: " ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الإيجاز والحذف. و فرق بين الزوائد والفضول والاستعارات..."[10]، وبذلك يكون الجاحظ قد خالف شيخه النظام المنكر لنظم القرآن باعتباره معجزة.

أما ابن قتيبة*** فانه يذهب إلى تمام ما ذهب إليه الجاحظ ويشاركه في القول بالإعجاز البياني، القائم على حسن التأليف، وإبراز الجوانب الفنية والبيانية من خلال التحليل للنماذج البلاغية والأسلوبية المنتقاة خدمة للموضوع.

و بحلول القرن الرابع الهجري، اتسعت دائرة كتب الإعجاز، وتوجهت إلى بيان أساليب العرب في الكلام في شعرهم وخطبهم وإعطاء الاهتمام البالغ، بدراسة وجوه البلاغة المتميزة بها لغة القرآن، واستنباط ألوان من المجاز والتشبيه والاستعارة، والسجع والتضمين وغير ذلك من أفانين القول، ثم مقارنتها بالنص القرآني وألوان بلاغته، وإبراز مزايا الأسلوب القرآني، وتفوقها على المألوف من كلام الأعراب، الذي كان متداولا شائعا، مركزا على جماليةطريقة نظم ألفاظه، ومعانيه الجميلة الجليلة الهازة لنفوس المتلقين.

الإعجاز عند الخطابي: اطلع أبو سليمان احمد بن إبراهيم الخطابي (ت 388ه) على ما كتبه سابقوه من العلماء، وأضاف قائلا: " وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا واشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل مننعوتها وصفاتها"[11]، ومع أن الخطابي لم يدعم ما ذهب إليه بشواهد من النص القرآني، فقد أشار إلى مزيتين لم يأت عليهما من سبقه من العلماء، وهما مزيتا الفخامة والعذوبة، ومن شان الفخامة أن تشعر المتلقي للنص القرآني بالمهابة والجلال، ومن شان العذوبة الحلاوة التي يجدها ذلك المتلقي واللذة التي يتحسسها، يقول: "...فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة، وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادين لان العذوبة نتاج السهولة، والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه مع نبو كل واحد

منهما على الآخر فضيلة خص بها القرآن، يسرها الله بلطيف قدرته من أمره، ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه"[12].

إعجاز القرآن للباقلاني: يعتبر الإمام أبو بكر محمد بن القاسم الباقلاني (ت403ه) من كبار العلماء الذين تجردوا لتفصيل القول في إعجاز القرآن، مستفيدا مما كتبه السلف من العلماء، فألف كتابه (إعجاز القرآن)، وهو احد المصادر التي تناولت إعجاز القرآن بتصور أشمل، ومقصديات محددة، فإعجاز القرآن عند الباقلاني هو الصفة المميزة له عن سائر كلام البشر، مع استجلاء وجوه الإعجاز في التفرد البلاغي والتميز الأسلوبي، ويستنتج أن القرآن الكريم يفوق النصوص الأدبية جميعا، ويفوق كل إنتاج أدبي عرفه العرب، لأنه " ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة، والغرابة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، على هذا الطول، وعلى هذا القدر "[13]، وخلاصة القول أن الباقلاني كان أوسع إدراكا لنظم القرآن، والماما ببلاغته وإعجازه، فهو يؤكد أيضا على حسن التأليف وانتظام الكلام من خلال فصاحة ألفاظه ومتانة نظمه واتساق معانيه.

وقد بحث كثيرون في ما اصطلح على تسميته بالنظم أو الإعجاز أو البيان القرآني، وكلها أسماء لمعنى واحد، ومقصد واحد، كلها تبحث في دلائلية الإعجاز القرآني منذ البدايات الأولى للدراسات القرآنية، أي: "إثبات عجز البشر متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من إعجاز القرآن هم تعجيز البشر لذات التعجيز أي تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل القرآن، فان ذلك معلوم لدى كل عاقل، وإنما الغرض هو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن الرسول الذي جاء به رسول صادق وهكذا سائر معجزات الأنبياء الكرام "[14].

ولما كان موضوع إعجاز القرآن الكريم من الموضوعات الحيوية المتجددة، فان التأليف فيه قد كثر وتنوع، واتسعت مجالاته استجابة لما كان يمثل روح العصر وموجة الثقافة السائدة.

النظم أو الإعجاز عند عبد القاهر الجرجاني: يعتبر أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت 471ه) من أشهر علماء المسلمين اهتماما بإعجاز القرآن، من خلال تعميقه البحث في نظرية النظم، وفي نظرية منهجية ناهضة أساسا على أساليب المجازات البلاغية الثابتة في الأعراف البلاغية العربية، ويعتبر عبد القاهر الجرجاني من هذه الوجهة مؤسس علم البلاغة على الطريق التي تفصل هذا العلم عن باقي المحاولات والتجارب التي لم تتخلص مما علق بأوّليات التفكير البلاغي العربي، من زوائد ولواحق توقعه ضمن الاهتمام اللغوي العربي المشترك، ويعد كتاباه: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة من أهم الكتب التي أُلفت في هذا المجال، وقد ألفهما

الجرجاني لبيان إعجاز القرآن الكريم وفضله على النصوص الأخرى من شعر ونثر، وله رسالة في إعجاز القرآن بعنوان "الرسالة الشافية في إعجاز القرآن" حققها كل من محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، مع رسالتين للخطابي والرماني تضمنها نفس الكتاب، وهي من أفضل ما كُتِب في الإعجاز نفى فيها الجرجاني القول بالصرفة،مؤيداً كلامه بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة.

ومما ذكره الجرجاني أن الألفاظ المفردة بحد ذاتها لا ميزة لواحدة منها على الأخرى، فذلك متاح لأهل اللغة، وإن المعاني بحد ذاتها لا وجود لها بدون الألفاظ، لذلك لا ينبغي الحكم على درجة بلاغتها مفردة بل مجتمعة في نظم، فالنظم هو الذي يحدث الأسلوب المتميز بتخير الألفاظ وترتيبها على نحو معين، "إنما المعجز ما علم أنه فوق قوى البشر وقدرتهم إن كان من جنس ما يقع التفاضل فيه من جهة القدر، وفوق علومهم إن كان من قبيل ما يتفاضل الناس فيه بالعلم والفهم "[15].

يُفهم النظم عند عبد القاهر الجرجاني على انه منهج اقتفاء اثر المعاني في الأساليب التعبيرية وفق الوجه والمنهج والأدوات الذي تقتضيها معيارية العقل القياسية"وهو تعريف يعكس الصلة المتينة بين المعنى وترتيبه في النفس...والى جانب هذا فان للنظم عند عبد القاهر الجرجاني صلة وثيقة بالنحو ومعانيه "[16].

و أفضل الأساليب هو الذي يحقق أفضل نظم للمعنى المراد، وبذلك يتخير أكثر الألفاظ تعبيرا عن المقصود ووضعها في الترتيب الأكثر لياقة بالمعنى، إذ"لا يستطيع احد أن يعرف إعجاز القرآن حتى يحسن تمييز أنواع النظم المختلفة ويحسن فهمها"[17]، وقد لخص عمار ساسي هذه الوجوه في ما يلي:

- الصورة الجميلة التي تنقل المعنى من السذاجة إلى الحلية في التعبير.
- الإعجاز في ائتلاف الكلم في نسق من الكلام ونظم من الأسلوب.

القرآن أعلى مراتب البلاغة والفصاحة والبيان، ومنه وإليه فطن عبد القاهر الجرجاني إلى نظريته، وقد نزل القرآن على أفصح الناس لسانا فتحداهم وأعجزهم، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، ولا أن يأتوا بسورة أو بآية، فأبانوا عن عجز واستسلام.

ولكن يبقى السؤال ما الذي أعجزهم فيه ؟ أعن معان دقيقة صحيحة قوية ؟ أم عن ألفاظ محكمة فصيحة؟ أجاب الجرجاني عن سر عجز العرب عن الإتيان بمثله، وفسّر إعجابهم به فقال: "أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل، مساق

كل خبر، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام، وتذكير وترغيب وترهيب، ومع كل حجة وبرهان، وصفة وتبيان، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها، ولفظة ينكر شأنها، ويرى أن هناك أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما، لم يدع في نفس بليغ منهم- ولو حك بيافوخه السماء - موضع طمع، حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول[18]".

وعلى الرغم من قيام المغالبة بين قوة بلاغية غير إسلامية، وأخرى ذائدة بكل قواها عن هذا الدين الجديد، إلا أن الطرفين، طرف الإعجاز وطرف المناوأة ظلا يتناجزان ويجتهدان في بذل أسباب الإبداع اللغوي، وقد استفادت الساحة الأدبية من ذلك التنافس أيما فائدة، وأثمر ذلك المسار عن كثير من الاستلهامات، والمشاريع الإبداعية المتميزة، فغذت المسار اللغوي العربي إلى وقت بعد ذلك غير قليل.

و بالتساند إلى الأسباب التي محصنا فيها القول حول منهج عبد القاهر الجرجاني، فان هذا العلم يعد وفق تلك الإحالات التراثية من أوائل المفكرين المسلمين الذين أعطوا الأهمية البالغة لدراسة النظم بعمق إلى درجة من العناية بلغت مستوى الاختصاص في مضماره، ترتب على ذلك المسار الاهتمام بنظرية المعنى في الدراسات الجمالية والأسلوبية، فبقي اسم عبد القاهر الجرجاني متقدا ينير أرجاء زمانه، فائحا بعبق المعرفة القرآنية، مغطيا على روح العصر التي سادت تلك الفترة من أسباب التحول المعرفي للأمة العربية الإسلامية.

مراجع البحث وإحالاته:

1ينظر مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مكتبة الايمان، 1997. ط1 ج1ص 276 وما بعدها.

2ينظر ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي بالقاهرة ط7 1998. ج1 ص 71.

3نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، مطبعة الصباح دمشق 1993. ط1 ص10.

4ينظر المبرد أبو العباس، الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف بيروت، ج2 ص60-61.

5أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، شرح وتع محمد عبد المنعم الخفاجي، دار الجيل د ت د ط ص55-62.

6عائشة عبد الرحمان، الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف القاهرة د تط3 ص19.

7مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية دار الكتاب العربي بيروت لبنان 1973 ط9 ص166.

8سورة فصلت 42.

* القول بالصرفة: إن الله تعالى سلب العرب العلوم التي يحتاجون إليها في معارضة القرآن الكريم والإتيان بمثله، ومعنى ذلك انهم أوتوا القدرة على المعارضة بما كانوا عليه من بيان وبلاغة وفصاحة، فهم قادرون على النظم والعبارات، ولكنهم عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن بسبب انهم سلبوا العلم الذي يستطيعون به محاكاة القرآن في معناه

9ينظر عمار ساسي، الاعجاز البياني في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث الاردن 2007. ط1 ص29.

** نظم القرآن: من أهم كتب الجاحظ في الإعجاز، بل عده بعضهم أول كتاب ظهر يتناول فيها صاحبه وجوه الاعجاز فيه وأسرار البلاغة في التعبير بالقياس الى كلام العرب، ذكره الزمخشري في مقدمة الكشاف، والباقلاني في مقدمة إعجاز القرآن والرافعي في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

10الجاحظ، الحيوان، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ووأولاده مصر 1965. ط2 ج3 ص86.

*** ابن قتيبة تأويل مشكل القرآن: تحدث عن البلاغة وعلومها، مع التمثيل بكلام العرب، لإبراز إعجاز القرآن من خلال المقارنة، غير ان الثقافة اللغوية لابن قتيبة طغت على استجلاء جماليات التعبير القرآني، فاقتصر على صور جزئية للنظم القرآني.

11أبو سليمان احمد الخطابي، إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله، دار المعارف القاهرة ط3 ص 27.

12المصدر نفسه ص 26.

13أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن ص87.

14محمد علي الصابوني، التبيان في علوم القرآن، دار شهاب ص89. 90.

15عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تح محمد خلف الله –محمد زغلول سلام، دار المعارف مصر د تط3ص135.

16عمار ساسي، الإعجاز البياني في القرآن الكريم، ص 31.

17عمار ساسي المدخل إلى النحو والبلاغة في إعجاز القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث الاردن 2007، ط1 ص118.

18عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت لبنان 1981 د طص 32.